University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRHJ)
Volume 8, Issue 2, (2024), pp. 419-430, ISSN:3079-0581

The Concert of Causality and ALGhazali's Position it

Samira Sagar

Department of Philosophy - Faculty of Education in Zuwara – University of Zawia
Zawia - Libya

EMAIL: Samira.Sagar.ly@gmail.com

Received:01 /06/2024 / Accepted:15/07/2024 Available online:31/12/2024.*DOI:10.26629/UZRHJ .2024.25*

ABSTRACT

This research raises the problem of the relationship between what we can call a cause and what we can call an effect, and what is the nature of that relationship linking them؟
This research presents a great attempt by a great philosopher, one of the icons of Islamic philosophical thought, who had a prominent role in its development, namely "Abu Hamid al-Ghazali," nicknamed "Hujjat al-Islam." In this attempt, he shows his unique opinion about the concept of causal relationship.
The research aims to study his most important ideas about the concept of causal relationship, comparing him with his predecessors among philosophers. Therefore, the researcher used the comparative method, in addition to using the analytical method specific to analyzing some of Al-Ghazali's philosophical texts about the concept of causal relationship.
The researcher concluded that Al-Ghazali was different from his predecessors in his analysis of the concept of causal relationship, as he criticized them for saying that this relationship is inevitable. Al-Ghazali replaces this term "inevitability or logical necessity" with another term that explains the relationship between things and their causes, which is the term "habit or repetition," where we notice and witness the succession of two events in a continuous and repeated manner, so we call one of them a cause and the other an effect, while the real cause is God's decree and will. There is no necessity or inevitability in the causal relationship, but rather it is a possible relationship.

Keywords: Causal relationship - Al-Ghazali - Islamic thought - Inevitability - Necessity.

"Articles published in *Univ Zawia Rewaq Alhkma* J are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License."

مفهوم العلاقة السببية وموقف الغزالي منها

سميرة صقر

قسم الفلسفة – كلية التربية بزوارة – جامعة الزاوية
الزاوية – ليبيا
Email: Samira.Sagar.ly@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/06/01م **تاريخ القبول: 2024/07/15م** **تاريخ النشر: 2024/12/31م**

ملخَّص البحث:

يطرح هذا البحث مشكلة العلاقة بين ما يمكن أن نسميه سبباً وما يمكن أن نسميه مسبباً، وما طبيعة تلك العلاقة الرابطة بينهما؟

يتعرض هذا البحث لأحد أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي، حيث كان له دورًا بارزًا في تطوره، ألا وهو "أبو حامد الغزالي" المُلقب "بحجة الإسلام"، وفي مُحاولته تلك يبين رأيه المنفرد حول مفهوم العلاقة السببية.

يهدف البحث إلى دراسة أهم أفكاره حول مفهوم العلاقة العلية، مع مقارنته بسابقيه من الفلاسفة لذا استعانت الباحثة بالمنهج المقارن، بالإضافة إلى استخدام المنهج التحليلي الخاص بتحليل بعض نصوص الغزالي الفلسفية حول مفهوم العلاقة السببية.

ولقد تم التوصل إلى أن الغزالي كان مختلفاً عن سابقيه في تحليله لمفهوم العلاقة السببية، حيث نقدهم لقولهم بحتمية تلك العلاقة، ويستبدل الغزالي هذا المصطلح "الحتمية أو الضرورة المنطقية"، بمصطلح آخر يفسر به العلاقة القائمة بين الأشياء ومسبباتها وهو مصطلح "العادة أو التكرار"، حيث نلاحظ ونشاهد تعاقب حادثتين بشكل مستمر ومتكرر، فنطلق على إحداها علة والأخرى معلولاً، في الوقت الذي يكون فيه السبب الحقيقي هو تقدير الله وإرادته، فلا ضرورة ولا حتمية في العلاقة السببية، بل أنها علاقة محتملة.

كلمات مفتاحية: العلاقة السببية ـ الغزالي ـ الفكر الإسلامي ـ الحتمية ـ الضرورة .

مقدمة:

تعد مشكلة السببية من أبرز وأهم القضايا التي شغلت فكر الإنسان منذ القدم، ولهذه المشكلة أهمية رئيسية، ذلك أنها مفتاح المعرفة الثابتة وأساس صياغة القوانين التي يفترض أن الكون يسير بمقتضاها، حيث ذهب الفلاسفة والعلماء إلى وصف العلاقة السببية بين الأشياء بالحتمية، فأينما وجدت العلة وجد معلولها ضرورةً، لذلك لا يمكن فصل أحدهما عن الأخر، فالتعاقب المنظم لحدوث الأشياء هو ما جعلهم يؤمنون بتلك الضرورة، لذلك كان للغزالي رأياً خاصًا ومنفرداً حول هذه العلاقة الرابطة بين السبب والمسبب، حيث نقد قول الفلاسفة بضرورية العلاقة السببية، ورأى أنه بالإمكان فصل العلة عن المعلول، فالارتباط بينهما لا ينطوي على الضرورة المنطقية، فالعلاقة بينهما قائمة على قوةٍ خارجية متمثلة في تقدير الله وإراداته، وبالتالي فإن العادة والتكرار لمشاهدتنا تعاقب شيئين على وتيرةٍ مستمرة هو ما يجعلنا نحكم على أن إحداها سبباً للآخر.

مشكلة البحث:

المشكلة الأساسية التي يدور حولها البحث، هي مناقشة مفهوم العلاقة السببية بين الأشياء، وبيان موقف الغزالي من هذه العلاقة، وهل يمكن وصف هذه العلاقة بالضرورة والحتمية أم أنها علاقة محتملة؟ وإن كانت تتصف بالاحتمال فما هو تفسير الغزالي لاحتماليتها ؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في التعرف على رؤية الغزالي لمفهوم العلاقة الرابطة بين العلة والمعلول، مع توضيح رأيه المنفرد حول ضرورة تلك العلاقة، والذي خالف فيه السابقين من الفلاسفة، وبيان تفسير الغزالي لتلك العلاقة راداً إياها إلى العلة الأولى وهي "الله" وتقديره وإرادته عز وجل.

منهج البحث:

يتناول هذا البحث المنهج التحليلي، الذي اعتمد في تحليل نصوص الغزالي الفلسفية المتعلقة بهذا الموضوع، بالإضافة إلى اعتماد المنهج المقارن من أجل المقارنة بين آراء الفلاسفة السابقين، ومعرفة أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

وللإجابة عن تساؤلات هذا البحث، تم تقسيمه على النحو الآتي:

أولاً: مفهوم السببية في اللغة والاصطلاح.

1- المفهوم اللغوي:

السبب لغةً هو الحبل، وما يتوصل به إلى المقصود، والفرق بين السبب والشرط أن السبب هو ما يكون الشيء محتاجًا إليه في وجوده، في حين أن الشرط ما يتوقف عليه وجود الأشياء (صليبا، 1982، 647). أما العلة فهي عبارة عن معنى يحل بالمحل فيتغير به حال المحل بلا اختيار، ومنه نسمي المرض علة،

لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف(الجرجاني، 2006، 147). وقيل العلة هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجًا ومؤثرًا فيه (الجرجاني،147).

2- المفهوم الاصطلاحي:

تعرف السببية بأنها مبدأ عقلي يمثل العلاقة بين السبب والمسبب، ويُراد بها أن لكل ظاهرة سبباً لحدوثها، فما من شيء إلا كان لوجوده سبباً، أو مبدأً يفسر وجوده (صليبا، 649)، كما تعرّف السببية بأنها فعل يُمارسه الله على العالم، بوصفه إرادة تقود كل الأحداث إلى غايات (لالاند، 1996، 1024). فالسببية أو العلية هي موضوع فلسفي يعني بالعلاقة بين حدث يسمى السبب وحدث آخر يسمى الأثر (خليل، 2018، 100).

لقد أمسى مبدأ السببية أو العلية منطلقًا لبناء الأسس المذهبية، فتراه يتجاوز حدود الطبيعة ليشمل علاقة عمودية بين العالم المحدث وبين الخالق المحدِث ولكل فيلسوف موقفاً منها.

ثانياً: الغزالي حياته ومؤلفاته :

1. حياته:

هو أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي، ولد في منتصف القرن الخامس الهجري سنة 450م في مدينة طوس، إحدى مُدن خرسان (الغزالي، 49)، كان أبوه رجل خير يعمل في مهنة غزل الصوف، حيث يبيع ما يغزله في سوق الصوافين، وسمي بالغزالي نسبة إلى حرفته، ومنهم من يقول أن تسميته إلى (غزالة) وهي قرية من قُرى طوس (الفاخوري، الجر،238).

قرأ الغزالي طرفاً من العلم ببلدة طوس، ثم ارتحل إلى جرجان، ثم إلى نيسابور، حيث إمام الحرمين (ضياء الدين الجويني) ولقد ظل الغزالي في رعايته يدرس الفقه والأصول والمنطق والكلام، ثم بعد ذلك خرج من نيسابور وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد، وبلغ أوج مجده العلمي بهذه المدرسة، حيث كان يحضر درسه كبار العلماء، ولأمر ما خرج منها وهام في الصحاري نحو تسع سنين، زار خلالها الشام والحجاز ومصر، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى طوس حيث توفي هناك في الرابع عشر من جمادي الثاني سنة 505هـ (الغزالي،49).

2. مؤلفاته:

يعتبر الغزالي من أغزر مفكري الإسلام مادةً، ومن أطولهم نفساً في التأليف، له عدة مؤلفات وسأعرضها ضمن ترتيبها الزمني: المنطق، تاريخ الفلسفة، الفقه، المواعظ، التصوف، الأخلاق، الآداب، مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة، معيار العلم، إحياء علوم الدين، وكتاب الأربعين، والقسطاس المستقيم (الفاخوري، الجر،242).

بالإضافة إلى كتابه: المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال(الفاخوري، الجر،243)، وكتابه: مشكاة الأنوار الذي تضمن أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ظاهر النص القرآني (الغزالي، 1964، 11)، بالإضافة إلى مؤلفاته أخرى.

ثالثاً: السببية عند فلاسفة اليونان وفلاسفة العصور الوسطى:

لقد اتخذ المفكرون مواقف متباينة إزاء هذه المسألة، كلٌ حسب نظرته إلى الأشياء وتمشيًا مع مذهبه الفلسفي، فأفلاطون مثلاً يتحدث عن هذه العلاقة راداً علة وسبب النظام في الكون إلى الخير المطلق عبر الصانع (جهامي، 2002، 20)، في حين أقر أرسطو بدور السببية الطبيعية بواسطة العلل الأربعة القريبة، والسببية الماورائية للحركة وردها إلى محرك ثابت أزلي حيث يقول: "ولما كانت الحركة واجبًا أن تكون أبداً،... يجب ضرورةً أن يكون ها هنا شيء هو الأول في الذي يحرك... والمحرك الأول غير متحرك" (طاليس، 1965م، ص865). فإلى جانب وجود عللٍ وأسباب قريبة، توجد أسباب أخرى ما ورائية غيبية خاصة بالآلهة وهي أن الله العلة الأولى لهذا العالم.

يرى أرسطو بأن الله هو المحرك الأول لهذا العالم، ويحركه كعلة غائية (الفارابي، 29)، وقد استمرت فكرة "السببية" في الفلسفات الوسطية، واختلف الفلاسفة في تحديد طبيعة هذه العلاقة، ففي الحديث عن هذه العلاقة نجد أفلوطين يُقر بأن السبب أو العلة الحقيقية لكل الظواهر والموجودات هو الله، وكل شيء صدر منه وإليه يعود (مرحبا، 2000، 230). وحسب هذا الرأي فإن كل ما هو موجود بعد الأول فإنما يوجد من الأول اضطراراً حسب نظرية الفيض والصدور.

أما أوغسطين فإنه يرى بأن هناك علاقة سببية بين الموجودات والله، حيث يرى أنه ليس هناك من سبب للخلق سوى مشيئة الله، فالعالم لا يوجد تبعاً للضرورة القاهرة ، وإنما وجد لأن الله خيّر (زيعور، 1998، 126)، فالعالم حسب هذا القول وجوده محتملاً حيث يرتبط بمشيئة الله وإرادته، فالعلاقة بين السبب والمسبب هنا ليست علاقة ضرورية بل محتملة مرتبطة بالإدارة الإلهية.

رابعاً: السببية في الفكر الفلسفي الإسلامي:

إن فكرة السببية تعد من الأفكار ذات الأهمية في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي، فلا يستطيع أحدٍ منا إنكارها، فالعالم وما فيه من محدثات إنما هو معلول لعلة أولى، وكل ما يوجد فيه من أشياء إنما هي مرتبطة بأشياء أخرى نطلق على إحداها سبباً والأخرى مسبباً سواءً كان سبباً قريباً أو بعيداً.

يذهب الفارابي مثلاً في إيضاح العلاقة السببية بين هذا العالم وما يحتويه من محدثات والله، بالقول بأن الله هو السبب الأول لوجود العالم وسائر الموجودات (الفارابي، 2)، ويُتابع ابن سينا من بعده فيقول: "هذا الوجود ينقسم إلى واجب وممكن، أما الواجب فهو الذي متى فرض غير موجود، عرض منه محال، أما الممكن الوجود فهو الذي فرض غير موجود، أو موجود لم يعرض منه مُحال" (ابن سينا، 225،224). ويقصد ابن سينا من قوله هذا أن الله هو واجب الوجود ووجوده ينطوي على الضرورة

المطلقة، أما هذا العالم فإن وجوده مرتبطاً بإرادة الله، فالله هو السبب في وجود هذا العالم وبإرادته المطلقة، فيصبح هذا العالم محتمل الوجود عن الله.

أما المتكلمون فإنهم يطلقون الكلام عن السبب، ويريدون به العلة، وكذلك إطلاق العلة على السبب أيضاً، والعلاقة التي تربط شيء بأخر تسمى علاقة سببية، حيث تذهب فرقة الأشاعرة على سبيل المثال إلى إنكار حتمية هذه العلاقة، فذهبوا إلى القول بعدم وجود علاقة بين الحوادث المتعاقبة إلا بإجراء "العادة" وذلك عقب بعضه البعض، كالري مثلاً بعد شرب الماء فليس للشرب دخل في الري، على أن الري واقعٌ بقدره الله (الجويني، 1950، 243)، في حين أنكر الدهريون السببية الماورائية وجعلوا الكائنات تتسلسل صعودًا إلى ما لا نهاية من الأسباب (جهامي،20).

خامساً: مُناقشة الغزالي للعلاقة السببية:

ناقش الغزالي مبدأ السببية في المسألة السابعة عشر في كتابه: (تهافت الفلاسفة) الذي وضح فيه فساد آراء الفلاسفة جملة وتفصيلاً، وأبطل قولهم بقدم العالم وأبديته، والقول بضرورة الأسباب والمسببات، ووضح بجلاء وجهة نظره بشأن قصور العقل عن إدراك الفلسفة الإلهية بطريق التفكير والاستدلال، حيث انتقد الغزالي فكرة الضرورة المنطقية (التلازم الضروري بين العلة والمعلول، أو بين الأسباب ومسبباتها)، ومن ثم فإن العلم يتأسس على أسس أخرى كفكرة (الاحتمال) أو (التكرار) أو العادة كبديل لفكرة الضرورة (عبدالله، 1998، 23) .

لقد نقل الغزالي موضوع نقد العلية إلى مكانها المنطقي، وهو العلم الطبيعي، فيرى أن من أهم المسائل التي يُخالف فيها السابقين في هذا العلم هو مذهبهم القائل بأن الاقتران المشاهد في الوجود بين الأشياء (اقتران تلازم بالضرورة)، فليس في المقدور ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب، ولا وجود للمسبب دون السبب (النشار، 1989، 159)، حيث ينكر الغزالي على السابقين قولهم بالارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات، ويستند هذا الإنكار إلى إننا نُشاهد تعاقب حادثتين الواحدة بعد الأخرى، فاصطلحنا على تسمية أحدهما علة، والأخرى معلولاً لها بدون وجود أي رابطة ضرورية لازمة بين الحادثتين ، وهذا يبدو واضحاً في قوله: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً، وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضروريًا عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات إحداهما متضمناً لإثبات الأخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الأخر، فليس من ضرورة وجود إحداهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدها عدم الأخر، مثل الري والشرب، والاحتراق ولقاء النار،... والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وغيرها من المشاهدات، فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق، لا لكونه ضروريًا في نفسه... بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة" (الغزالي،239).

والغزالي هنا يذكر أن تكون العلاقة بين الأشياء علاقة ضرورية، حيث ينفي حتميتها وأن اقترانها إنما هو من تقدير الله عز وجل، ويكشف الغزالي بالرغم من اعتباره السببية مبدأً طبيعياً إلا أن أساسها ما بعدي

أو إلهي يساوي الله من حيث هو سبب لفعل الطبيعة (المرزوقي، 28)، فالله هو الفاعل الحقيقي للأشياء، لذلك فإن الأشياء في الطبيعة مرتبطة فيما بينها بعلاقات، وحسب رؤية الغزالي فأن هناك ثلاث طرقٍ للارتباط بين شيئين:

1. العلاقة المتكافئة: وذلك مثل العلاقة التي تكون بين اليمين والشمال، والفوق والتحت، فعند تقرير فقد أحدهما يلزم أيضاً فقد الأخر، لأنهما متضايفان فلا تقوم حقيقة أحدهما إلا مع الأخر (زقزوق، 1981، 193).

2. العلاقة بين الشرط والمشروط: ويلزم من تقدير انتفاء الشرط انتفاء المشروط.

3ـ العلاقة بين السبب والمسبب، أو العلة والمعلول، فإذا انتفى السبب انتفى المسبب أيضاً، بشرط ألا يكون لهذا المسبب إلا سبب واحد فقط، وهكذا فإن كل حادث له مسبب، ولهذا المبدأ ضرورة أولية في العقل "Mind"، ولكن الغزالي يرى أنه يجب التفريق بين الشرعية المطلقة لمبدأ السببية، وبين السببية المشاهدة في المحسوسات، ذلك لأن هذه الأخيرة لا يمكن أن تكون لها ضرورة مطلقة (زقزوق،194)، ففي الوقت الذي يذهب فيه بعض الفلاسفة بقولهم إن الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات إنما هو اقتران تلازم بالضرورة، فليس في المقدور ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب، نجد الغزالي يذهب إلى عكس ذلك، حيث يرى بأن الاقتران بين السبب والمسبب لا يرجع إلى كونه ضروريًا في نفسه، بل يرجع إلى حكم العادة "Habet"، التي آلفتها على التساوق (مرحبا،1993، 336،337)، حيث يقول الغزالي في التهافت: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا" (الغزالي،239)، فالأسباب التي تشاهد تثبت فقط اقترانا زمنياً، فلا تستطيع البرهنة على أن شيئاً معيناً هو السبب، وأنه لا توجد أسباب أخرى (زقزوق، 156).

ويناقش الغزالي هذه المسألة (العلاقة السببية بين الأشياء) عن طريق مثال احتراق القطن بواسطة النار Fire حيث يقول: "فلنعين مثالاً واحداً وهو الاحتراق في القطن مثلاً، عند ملاقاة النار، فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق، ونجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار" (الغزالي،239).

وهنا يشير الغزالي إلى أن العلاقة القائمة بين احتراق القطن أثناء ملاقاته للنار هي علاقة محتملة وليست حتمية.

ويستمر الغزالي بالقول: "فاعل الاحتراق، يخلق السواد في القطن، والتفرق في أجزائه، وجعله حراقًا أو رماداً هو الله تعالى...، فأما النار وهي جماد فلا فعل لها" (الغزالي،240)، والغزالي هنا يقيم علاقة عمودية بين احتراق القطن والله، فالله هو الفاعل الحقيقي للإحراق وليس النار. ويتابع الغزالي مناقشته لهذه العلاقة القائمة فيطرح سؤالاً على خصمه من الفلاسفة فيقول: "فما الدليل على أن النار هي الفاعل؟

وليس لهم دليلٌ إلا مشاهدة حصول الاحتراق منذ ملاقاة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها ولا تدل على الحصول بها" (الغزالي،240).

فعملية الاحتراق هنا محتملة الحصول وليست ضرورية وأن المشاهدة المتكررة لعملية احتراق القطن بملاقاته للنار هي التي جعلت الفلاسفة يقرون بحتمية العلاقة السببية بين الأشياء.

إن النقطة الأساسية لنقد الغزالي للقول بالتلازم الضروري بين السبب والمسبب تتمثل فيما يراه من أن العلة بالمعنى الحقيقي يجب أن تكون (إرادة فاعلة)، ونظراً إلى أن المادة عاجزة عن أن تكون فاعلة، فإنها لا يمكن أن تكون علة أيضاً، ولهذا يرى الغزالي أنه من الخطأ الزعم بأن من طبيعة النار ضرورة الاحراق، فادعاء هذه الضرورة في الطبيعة تستند فقط على الخيال، والاحتراق يحدث فقط عن طريق أن هناك إرادة قادرة على أن تخلق الاحتراق في نفس الوقت الذي تحدث فيه الملاقاة (زقزوق،155)، فالفاعل هو من يصدر عنه الفعل بإرادته وعلمه واختياره، ففاعل الاحتراق ليست النار لافتقارها أن تكون مريدة وفاعلة؛ بل الله لأنه فاعل ومريد.

إن الفاعل هو من يصدر عنه الفعل بإرادته واختياره، وقول الفلاسفة بضرورة وجود العالم عن الله ولزومه عنه لزوم المعلول عن العلة، كالظل من الشخص والنور من الشمس، ليس من الفعل في شيء، فلا يجوز أن يسمى كل سبب بأي وجه كان فاعلاً، ولا كل مُسبب مفعولاً، وإلا كانت الجمادات فاعلة ولا تسمى فاعلة إلا بالاستعارة (سعادة،1990، 69) ، إذاً النار لا فعل لها والارتباط ما بين الحادثتين ملامسة القطن للنار والاحتراق لا يقوم على أساس الضرورة الطبيعية، ولكن الله هو الذي يخلق الاحتراق، أما بطريق مباشر أو غير مباشر (زقزوق،155)، حيث يقول الغزالي: "فقد تبين أن الوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به" (الغزالي، 241)، فليس هناك علية ضرورية بين الأسباب ومسبباتها وإن ما يوجد هو عادة ذهنية تكونت على إثر توالي الأحداث.

إنه وبالرغم من إنكار الغزالي حتمية هذه العلاقة ورغم استبداله لمصطلح الضرورة وإحلاله لفكرة الاحتمال، إلا أنه يؤكد على أن مبدأ السببية كقانون عقلي ضروري، بل إنه موازٍ لمبدأ الهوية، وأن الغزالي ينفي عن الرابطة الضرورية أي مدى وجودي ،ومن ثم فإن نفي العلم أو النظام في الطبيعة ينفي هذه الضرورة، أمرٌ لا يتناوله الغزالي مباشرة، لأنه يريد أن يقول أن جريان أحداث الطبيعة على نحو مخالف لفرض هذه الضرورة أو يفرض غيابها لا يتناقض بشيء مع أمور الطبيعة، بمعنى أنه إذا كان من شناعة القول أن نقول أن الاحتراق يحدث قبل حدوث المماسة بين النار والقطن، لأن ذلك لا يقبله عقل، ولا هو من مشاهدات الطبيعة، إلا أنه يمكن أن تحدث المماسة دون أن يتم الإحراق، أي أنه ليست هناك علاقة علية ضرورية أو تلازم ضروري بين الممكنات ولكن يفسر حدوث حادثة بعد أخرى بإطراء العادة ليس إلا (عبدالله، 39)، فالعادة والتكرار هما اللذان يؤثران على العقل ويجعلانه يُصدر أحكامه بدون تروي. ويتابع الغزالي قوله في التهافت: "إن الله وإن كان قادرًا على كل شيء ممكن، إلا أنه خلق

لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها، فهذه الأمور ليس واجباً ألا تكون بل هي ممكنة... إنه لم يخلق من نطفة الحيوان إنسان، ولا من نطفة الإنسان حيوان، ولم ينقلب الكتاب غُلاماً أمرد، ولم ينبت من بذر الكمثرى شجرة تفاح، ولم يحصل من ملاقاة الأجسام للنار إذا كانت قابله للاحتراق ألا تحترق، ولكن من أستقرأ عجائب العلوم لم يستبعد عن قدرة الله ما يحكى من معجزات الأنبياء عليهم السلام" (الغزالي، 245-247).

إن الدافع الحقيقي الذي دفع بالغزالي إلى إنكار حتمية العلاقة السببية، أو ضرورية الاقتران السببي بين الأسباب ومسبباتها إنما هو دافع ديني يفسح فيه المجال للمعجزات السوية، فجميع الأمور إنما هي بإرادة الله لا بعللها الظاهرة وسأوضح رأيه في هذه المسألة.

سادساً: تفسير الغزالي لمعجزات الأنبياء:

نفى الغزالي ضرورة الظواهر الطبيعية، وأفسح المجال للممكنات ليتسنى له تفسير المعجزات للأنبياء، تفسيراً يتلاءم مع مذهبه، وحاصل هذا المذهب أن الظواهر الطبيعية ليست ثابتة بحيث يمكن القول بوجود الأسباب والمسببات، بل هي ممكنة، وقد تتغير، والله تعالى هو الذي يغيرها، ولما كانت نفس النبي من الصفاء والاتصال بحيث يطلع على الممكن من الغيب فوقعت المعجزة (الأهواني، 2023، 116).

فكما أن العقل طور من أطوار الأدمي، يحصل فيه عينٌ يُبصر بها أنواعًا من المعقولات والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر عن نورها الغيب، وأمورٌ لا يدركها العقل (الغزالي،146).

لقد أنكر جمهرة من الفلاسفة وقوع سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار مع عدم احتراقه، وبقاء النار ناراً، وزعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار، أو بانقلاب ذات إبراهيم وبدنه حجراً أو شيء لا يؤثر فيه النار (الغزالي، 243)، معتمدين في قولهم هذا على أن النار تحرق كل شيء قابلاً للاحتراق فكيف تحرق القطن ولا تحرق البدن.

ويرد الغزالي على خصومه بالقول إن الإجابة لها مسلكان.

الأول: أن تقول: لا نسلم أن المبادئ ليست تفعل بالاختيار، وأن الله تعالى لا يفعل بالإرادة... وإذا ثبت أن الفاعل يخلق الاحتراق بإرادته، عند ملاقاة القطنة النار، أمكن في العقل ألا يخلق الاحتراق مع وجود الملاقاة (الغزالي، 243)،. فصفة الإحراق في النار صفة أودعها الله فيها وهي صفة ممكنة، وليست ضرورية.

الثاني: وهو أن نسلم أن النار خلفت خلقه، إذا لاقاها قطعتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرق بينهما إذا تماثلت من كل وجه، ولكن مع هذا نجوز أن يلقى نبي في النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار، أو يتغير صفة النبي عليه السلام، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة من النار تقصر سخونتها على جسمه بحيث لا تتعداه فتبقى معها سخونتها، وتكون على صورة النار وحقيقتها، ولكن لا تتعدى

سخونتها وأثرها، أو يحدث في بدن النبي صفة لا تخرجه عن كونه لحمًا وعظمًا فيدفع أثر النار... وفي مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ونحن لم نشاهد جميعها، فلم ينبغي أن ننكر إمكانها ونحكم باستحالتها (الغزالي، 246).

ويرد ابن رشد على الغزالي في كتابه: (تهافت التهافت) مدافعًا عن الفلاسفة بقوله: "أما الكلام في المعجزات فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قولٌ، لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب أن يتعرض للفحص عنها، فإنها مبادئ الشرائع، والفاحص عنها والمشكك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم، مثل من يفحص عن سائر مبادئ الشرائع العامة، مثل: هل الله تعالى موجود؟ وهل السعادة موجودة؟... وأنه لا يُشك في وجودها هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية" (ابن رشد،346).

لقد حاول الغزالي تعليل المعجزات تعليلاً طبيعياً، فإحياء الموتى، وقلب العصا ثعباناً، ممكن، لأن المادة قابلة لكل شيء، وقدرة الله هي المتحكمة في الأشياء، وهو علة جميع الأشياء، وهكذا فليس ثمة ارتباط ضروري بين علةٍ ومعلولها، وكل ما هنالك عادات ذهبية تكونت على إثر توالي الحوادث وتعاقبها، فلا يجوز أن تستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهداتنا على أن ذلك يجب أن يكون دائماً، وعلى أن قانون العلية قانون ضروري لا يتصور خرقه، وأن حصول الأشياء على نحو معين لا ينفي ولو في الذهن إمكان حصولها، فما هو حاصلٌ بالفعل إنما هو احتمال واحد من عدة احتمالات (عبد الله، 388)، ولقد امتد أثر قول الغزالي باحتمالية العلاقة السببية إلى الفكر الأوربي فيما بعد، حيث نجدها عند الفيلسوف ديفيد هيوم الذي جاء بعد الغزالي بحوالي 6 قرون حيث يشير إلى أن الرابطة الضرورية الوحيدة هي رابطة التفكير فنحن لا ندرك أي رابطة ضرورية متأصلة في السبب والنتيجة (التلوع، 1993، 53)، وأن فكره الضرورية تنشأ من انطباع تأملي وليس هذا الانطباع إلا نزوعًا أحدثته العادة للانتقال من انطباع جسم إلى فكرة الجسم الذي صحبته عادة (متى،1988، 223).

الخاتمة :

من خلال ما سبق يمكن أن نصل إلى الآتي :-

1- تعد فكرة السببية من أهم القضايا التي شغلت الفكر الإنساني قديمًا وحديثًا، ذلك أنها مفتاح المعرفة الثابتة، وأساس صياغة القوانين التي يفترض أن يسير الكون بمقتضاها.

2- إن مبدأ السببية كقانون عقلي هو مبدأ ضروري، ولا سبيل إلى إنكاره، بل أنه يمكننا القول بأنه موازٍ لمبدأ الهوية.

3- لم ينكر الغزالي على الفلاسفة قولهم بوجود العلاقة العلية بين الأشياء، ذلك أن لكل شيء سبب، وإنما أنكر عليهم قولهم بحتمية هذه العلاقة، وأنها تنطوي على الضرورة المنطقية بحيث لا يمكن فصل العلة عن معلولها.

4- إن الغزالي طرح البديل لفكرة الضرورة المنطقية وهي فكرة العادة والتكرار كتفسير للعلاقة السببية بين الأشياء، حيث أن العلية أو السببية اكتسبت بين الأشياء بسبب العادة والتكرار المستمر لمشاهدتنا تعاقب شيئين فاصطلحنا على تسمية إحداها سببًا والآخر مسببًا، فالغزالي يرفض القول بأن العلاقة بين الأشياء ومسبباتها هي علاقة تطابق وإنما هي علاقة "تلازم في الوقوع".

5- كان الدين دافعًا أساسيًا دفع بالغزالي إلى إنكار ونقد عملية "التلازم الضروري بين الأسباب والمسببات"، والقول بعبارة أخرى "ضرورية العلاقة السببية"، حيث يفسح المجال للمعجزات الخاصة بالأنبياء، فالأمور التي لم تحدث، ولم نرها لا تعني استحالة حدوثها، فكل شيء يرجع إلى تقدير الله وإرادته.

6- هدف الغزالي من وراء إنكاره "ضرورية العلاقة السببية" إلى إبراز الإرادة الإلهية على أنها الفاعلة دائمًا وأبدًا.

المراجع :

(1) أبو يعرب المرزوقي: مفهوم السببية عند الغزالي، (د.ط)، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، (د.ت)

(2) إبن سينا: النجاة، ط2، مطبعة الكردي، القاهرة، (د.ت.

(3) ابن رشد: تهافت التهافت، تقديم أحمد شمس الدين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، (د.ت)

(4) التلوع ،أبوبكر(1993) مدخل إلى علم التفسير، (د.ط)، منشورات جامعة السابع من أبريل بالزاوية

(5) الجرجاني ،السيد شريف(2006): التعريفات، ط1، دار البيضاء.

(6) الجويني(1950) الإرشاد في قواطع الأدلة وأصول الاعتقاد، تحقيق: محمد يوسف، مكتبة الخانجي.

(7) جهامي ،جيرار(2002) مفهوم السببية بين المتكلمين والفلاسفة، بين الغزالي وبن رشد، (د.ط)، دار المشرق، لبنان.

(8) حنا الفاخوري، خليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، الفلسفة العربية في الشرق والغرب، ج2، دار الجيل، بيروت، (د.ت.

(9) خليل ،صفية العدوى(2018) فكرة السببية عند فلاسفة الإسلام من منظور نقدي، د.ط، كلية الآداب، مصر.

(10) زقزوق ، محمد حمدي (1981) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

(11) زيعور ،علي(1998) الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، (د.ط)، المكتب العالمي للنشر.

(12) سعادة ،رضا (1990) مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين، بين الغزالي وبن رشد إلى الطوسي والخواجه زاده، (د.ط)، دار الفكر، لبنان

(13) صليبا، جميل(1982م) المعجم الفلسفي، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(14) طاليس ،أرسطو(1965) الطبيعة، ترجمة إسحاق بن حنين، تحقيق: عبدالرحمن بدوى، (د.ط)، ج2، الدار القومية للنشر، القاهرة.

(15) عبدالله ،عيسى (، 1998) الفكر الإسلامي ودوره في بناء المعرفة وتطور مناهج العلوم، (د.ط)، دار الكتب الوطنية بنغازي.

(16) الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق: سليمان دنيا، ط6، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

(17) الغزالي(1964)مشكاة الأنوار، تقديم وتحقيق: أبو العلاء عفيفي، (د.ط)، دار القومية للطباعة والنشر.

(18) الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق: جميل صليبا، كامل عياد، (د.ط)، دار الأندلس، (د.ت)

(19) الفارابي: الجمع بين رأيي الحكميين، تقديم البير نصري، ط2، دار المشرق – لبنان.

(20) الفارابي: أراء أهل المدينة الفاضلة، ط2، مطبعة الحجاز، د.ت.

(21) النشار ،علي سامي(1989) مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت،

(22) الأهواني ،أحمد فؤاد (2023)في عالم الفلسفة، (د.ط)، مؤسسة هنداوي للنشر.

(23) مرحبا ، محمد عبدالرحمن (1993) الفلسفة في العالم والتاريخ، خطاب الفلسفة العربية الإسلامية، (د.ط)، دار عز الدين للطباعة والنشر، بيروت

(24) مرحبا ، محمد عبدالرحمن(2000) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، موسوعة فلسفية كاملة، المجلد الأول، (د.ط)، عويدات للنشر والتوزيع، بيروت.

(25) متّى ، كريم (1988) الفلسفة الحديثة، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.

(26) لالاند ،أندريه(1996) موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد 2، د.ط، منشورات عويدات، بيروت.